الرد الإيراني والمسجد الأقصى بين صورتين

محمد جرادات
كاتب ومحلل سياسي

احتل مشهد الصواريخ الإيرانية وهي تضيء سماء المسجد الأقصى وقبته المشرفة صدارة مشهدية الرد الإيراني على القصف الإسرائيلي لقنصلية إيران في دمشق، بما أشعل الفضاء الإلكتروني، وصاغ معادلة وعي جديدة نسفت ما سبق للماكينة الإسرائيلية وأدواتها في العالم أن كرّسته في العقل الجمعي الفلسطيني والعربي والإسلامي عبر مسيرة الإعلام التهويدية التي ظهر فيها المسجد الأقصى حزيناً وقبته المشرفة تعلوها طائرة عسكرية للمحتل الإسرائيلي.

حرص الإعلام الإسرائيلي على الترويج لصورة طائرة الشرطة الإسرائيلية وهي تثقل كاهل المقدسيين والعرب والمسلمين، وقد نجحت مسيرة الإعلام وقتها في ترسيخ معاني التدنيس الإسرائيلي للمسجد الأقصى، وترك بصمة عميقة في الوجدان، وهو ما أطلق تراكمياً طوفان الأقصى في السابع القسامي لأكتوبر.

وكانت المقاومة الفلسطينية، وخصوصاً سرايا القدس، قد تنبهت لهذا الأثر، فحرصت أكثر من مرة على قصف مستوطنات القدس وقت ظهيرة الجمعة، إذ تنطلق صفارات الإنذار وما يعقبه من انفجارات، وقد ترافقت مع صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، في رسالة وعي للمقدسيين عمادها الصلاة في الأقصى.

تجاوز نجاح الهجوم الإيراني هدفه الأساس في تدمير قاعدة نيفاطيم العسكرية الجوية الإسرائيلية، والتي انطلق منها العدوان على ضباط الحرس الثوري في قنصلية دمشق، ما خلق معادلة وعي، فضلاً عن معادلة الردع، في ظل العجز الإسرائيلي عن الرد حتى الآن، رغم علنية الهجوم الإيراني، فما هي معادلة الوعي التي بدأت تتلألأ في عقول الشباب وقلوبهم مع إشراقات النور الإيرانية في ليل فلسطين المثقل بأحزان غزة وجنين وسلوان؟

حاول الإسرائيلي في ظل مشروعه الصهيوني أن يبتلع فلسطين الأرض والتاريخ ضمن سردية توراتية مفتعلة. وعندما وصل غلاة اليمين المتطرف إلى الحكومة الإسرائيلية، واحتلوا فيها لأول مرة مرافق حيوية، أبرزها وزارة الأمن الداخلي المسؤولة بشكل مباشر عن أمن المسجد الأقصى، مع تساوق تام من رئيس حكومة الاحتلال بيبي نتنياهو، وقد تكشفت السرعة في تنفيذ المشروع التهويدي للمسجد الأقصى، وليس فقط البلدة القديمة للقدس.

بدأت عملية تزوير الوعي الإسلامي، ثم تكريس واقع جديد، عبر عمليات هائلة في ضخ صورة نمطية جديدة للمسجد الأقصى، عبر اعتياد تدنيسه، ليس بالزيارات الجماعية والفردية الاستفزازية فحسب، ولكن أيضاً بالشعائر اليهودية المتصلة بأماكن حساسة داخل ساحاته، رغم تجنب ذلك منذ الزيارة الاستفزازية للزعيم الإسرائيلي أرئيل شارون للمسجد الأقصى، وهي التي تسببت في انطلاق انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠، بما لجم الشهية الإسرائيلية عن هذا النهج لسنوات بعيدة.

وقد ساهم صعود اليمين الإسرائيلي في إحياء المشروع القديم الجديد ضد المسجد الأقصى، وما يمثله من رمزية وعي صلبة في الضمير الفلسطيني والوجدان الإسلامي، وأخذ الاعتياد يكسر حالة الوعي برؤية الاقتحامات الإسرائيلية مع حرب الصورة، وخصوصاً صورة طائرة الشرطة الإسرائيلية فوق القبة مباشرة، بما تعنيه من إذعان ورضوخ يراد ترسيخه في الذهنية العربية، لتتقبله النفسية الفلسطينية وتعتاده كحقيقة واقعية لا مفر منها، باعتبار الهزيمة ونتائجها على المهزوم، وهو ما سبق للزعيم الإسرائيلي عيزر فايتسمن أن تبجح به، وهو يصف مشروع السلام النموذجي عندما تحلق فوقه طائرة F16 بشكل دائم.

فهاج طوفان الأقصى وعصف بمنظومة الوعي الإسرائيلية عصفاً تجاوز الزلزال، وعمل الكيان على تحويله من ضربة إلى فرصة، وخصوصاً مع تطرف وزير الأمن الداخلي إيتمار بن غفير، وعينه لا تفارق الهدف المعلن بتدمير الأقصى لإقامة الهيكل على أطلاله، باعتباره أكبر هدف صهيوني يراد تنفيذه في لحظة تاريخية مناسبة.

دخل الكيان في انسداد ميداني في رمال غزة الصابرة المثابرة، وعمليات إسناد الجبهات تتفاعل من لبنان حتى اليمن مع تصاعد جبهة الضفة. هنا بدأ التوحش الإسرائيلي يتلاطم بما تجاوز حرب الإبادة في غزة والسجون لما هو طيش الأفق باعتباره هيبة ردع، فكان باب الفرج الإيراني، وفق تعبير السيد حسن نصر الله، باتجاه استكمال المعركة نحو النصر، وإن عبر سيل من الدماء الطاهرة في دمشق لقائد المستشارين الإيرانيين أبي مهدي زاهدي ورفاقه في القنصلية.

تطلب الميدان هيبة الردع الإيرانية باعتبارها ظهير المقاومة الشامل، وهذه الهيبة متطلب عسكري وسياسي بالأساس بعيداً عن ثقافة الوعي، ولكن التداخل في الصراع الإسلامي الإسرائيلي عميق ومتجذر، ويمكن اختصاره برمزية الصواريخ الإيرانية وهي تبدد عتمة ليل القدس الحزين، وقد شاهدها المقدسي بشكل مباشر ببصره وبصيرته، ونقلوها مع هتافات العزة للعالم، بما يُعجز ماكينة الأقلام المأجورة المهزومة عن مواجهة حالة الوعي التي انساحت في نفسيات الشعوب المولودة على الفطرة في بغض «إسرائيل» وعشق الأقصى. وعبرت صواريخ خيبر مسافة ٢٠٠٠ كم، متجاوزة أحدث منظومات الدفاع العالمية، بهدي صرخة: يا رسول الله، لتحلق في طريقها مباشرة فوق المسجد الأقصى.

مشهد وعي ممتد عبر عبق التاريخ، منذ خيبر التي كسر بابها عليّ بن أبي طالب، بحبه لله ورسوله، بما يؤسس لمنظومة فكرية نفسية جديدة تتجاوز الفواصل المذهبية لما هو وحدة الأمة نحو القضية الجامعة فلسطين، بما تمثله من رمزية مواجهة التحدي الغربي الحديث وجوهرية الرسالة الدينية في هذا التحدي، وعبر ناظم إسلامي محض يعيد إلى الصراع وهجه الحق.

ما هي معادلة الوعي التي بدأت تتلألأ في عقول الشباب وقلوبهم مع إشراقات النور الإيرانية في ليل فلسطين المثقل بأحزان غزة وجنين وسلوان؟

أحمد فؤاد
كاتب ومحلل سياسي

ما بعد عاصفة «الوعد الصادق»

الحرب كونها فعلًا محدّدًا باستخدام السلاح، ومشحونة ببريق البارود والنار والدم، هي وسيلة ضمن وسائل تلجأ إليها الأمم في صراعاتها، أو كما يشرح كلاوزفيتز: «الغرض السياسي هو الهدف من كلّ حرب، والحرب هي وسيلة للوصول إليه، ولا يمكن أبدًا عدّ الوسائل بمعزل عن أغراضها». من هذه النقطة أو المستوى تحديدًا يمكن مناقشة ما جرى في منطقة الشرق الأوسط ليلة الرابع عشر من نيسان، مع انطلاق عملية «الوعد الصادق» المباركة، كعاصفة هائلة مدمرة من الجمهورية الإسلامية إلى قلب كيان العدوّ وواقعه، وربما مستقبله.

الشكل العسكري للضربة وأهدافها الآنية ونتائجها المباشرة ليست من صلب القضية – الآن على الأقل - لم يشأ كاتب الرسالة أن يبوح بتفاصيلها، وتركها كجرس إنذار معلق فوق رؤوس الجميع، وعلى رقابهم. لكن هناك نقاط لا يمكن تفويتها في الرسالة الإيرانية المذهلة. وطبقًا للمتاح من معلومات أكيدة، طهران اختارت أن تقوم بـ»هجوم تاريخي» غير مسبوق على كيان العدو، بعدد صواريخ ومسيرات شكّل صدمة فارقة ومروعة للصديق قبل العدو، وترك انطباعًا محسوسًا بأن غرس جهد وعرق وآلام الثورة الإسلامية طوال ٤٥ عامًا كان شجرة طيبة أصلها في الأرض وفرعها صار اليوم في السماء، وأن ما حققته إيران من تطوّر لافت في مجالات التصنيع العسكري وتفوق علمي، وريادة في سباق التكنولوجيا المتطورة، وإنجازات فريدة في سبيل حيازة عوامل القوّة، وبصيرة إيمانية تتكامل مع رؤية ثاقبة للجمهورية تتمتع بفضائل الجرأة والشجاعة، كلها إشارات إلى بزوغ فجر جديد على هذه المنطقة، باتت معه فرض أنها غنيمة باردة للأجنبي فصلًا منتهيًا، وافتتحت به عصرًا جديدًا دخل فيه محور المقاومة لاعبًا أساسيًا في ميدان الصراع على المنطقة وفيها، وختم فيه بعزة فعل «الوعد الصادق» ومغزاها العميق المحفور في الوجدان والضمير العربي والإسلامي، في أكمل وأروع انتصار عربي معاصر، أزمان التبعية والرضوخ والهوان.

ما هو متحقق بالفعل وعلى الأرض من نتائج جديدة تمامًا هو أن الكيان للمرة الأولى منذ نشأته يعيش ليلة رعب كامل، في انتظار مرور دويّ الانفجارات والصوت العذب لصفارات إنذارها – في قلوبنا - ثمّ أن الأهم هو أن الكيان اضطرّ إلى ارتداء القناع العربي المذل وابتلاع الضربة، كأي نظام عربي مثير للاشمئزاز والاحتقار، عبر تبني رسالة «أن ٩٩٪ من الصواريخ تم إسقاطها»، ومنع الإعلام الإسرائيلي من نشر أي أنباء أو أرقام عن الخسائر، وحتّى عن نسبة الـ ١٪ التي يدعيها.

من المهم أيضًا أن تخاصم طريقة تفكيرنا لائحة أهداف أعدائنا، من المؤسف أن الأبواق العربية الخائنة الناهقة الناعقة ليل نهار بقلب عبري ولسان عربي، كانت تردّد قبل الضربة أن إيران لن ترد على الجريمة الصهيونية باستهداف قنصليتها في دمشق، ثمّ صعقتها المفاجأة وزلزال الرد المخيف، وعادت بعدها لتردّد من جراب الحقارة أن ما جرى كان «مسرحية» متفقًا عليها بين أطرافها، وهو طرح ساقط من نفوس رخيصة، قبلت على نفسها الذلة، وتريد أن تصبغ العالم حولها بروثها، حتّى تشبع قلوبهم العمياء بفرية أن الجميع ملوثون.

الحقيقة الوحيدة التي يجب تعميمها أن ما حدث ليلة الرابع عشر من نيسان كان المشهد الثاني لطوفان الأقصى المبارك، مهما بلغت خسائرهم ومهما طال مدى كذبهم بشأنها، فإن طهران كسرت ركيزة الكيان كـ«ملجأ آمن» لكل يهودي في العالم، وكسرت خرافة التفوق الإذلالي للعدو في اللحظة التي تركوا فيها بيوتهم إلى الملاجئ تحت تهديد الصواريخ القادمة من إيران.

ليلة «الوعد الصادق» هي أقرب ما تكون لليلة قدر، قد تغيرت فيها أقدار المنطقة وأوزان الفاعلين الاستراتيجيين فيها، مرة واحدة وإلى الأبد. بعد «الوعد الصادق» لم يعد الكيان حرًا في توجيه الطعنات إلى أي مكان وقتما يريد وحيثما يرغب، عرفت المنطقة أخيرًا معنى «العقاب»، وفي شهر نيسان بالذات، الذي تمرر فيه الذاكرة العربية أحداثًا مفجعة وأليمة، وتاريخ كامل من القهر والموت، في بحر البقر يوم ٨، وقبلها في دير ياسين يوم ٩، الليلة حصل أطفال العرب على ثأرهم، أو حتّى على جزء معتدّ منه، حين أسقط الحرس الثوري بصيحة «يا رسول الله» المقدسة أسطورة أسوار خيبر الجديدة والقبة الحديدية ومقلاع داوود، إلى مآلها الطبيعي في سلة قمامة النسيان.

طهران كسرت ركيزة الكيان كـ«ملجأ امن» لكل يهودي في العالم، وكسرت خرافة التفوق الإذلالي للعدو في اللحظة التي تركوا فيها بيوتهم إلى الملاجئ تحت تهديد الصواريخ القادمة من إيران

التحليل الإخباري

«الوعد الصادق» عزز معادلة الردع.. فما هي خيارات العدو؟

جهاد حيدر
كاتب ومحلل سياسي

امتنعت الجمهورية الإسلامية الإيرانية عن الرد على الاستهداف الإسرائيلي الأخير لقنصليتها في سورية بالأسلوب الذي رجَّحته الاستخبارات العسكرية المعادية. وكانت هذه الاستخبارات قد رجّحت أن يكون الرد عبر أحد حلفاء إيران أو من خلال إحدى ساحات محور المقاومة من دون بصمة إيرانية واضحة.

هَدَفت إيران من خلال ردها إلى تعزيز قوّة الردع، وإحباط المعادلة التي حاولت «اسرائيل» إرساءها باغتيال قادة الحرس داخل القنصلية الإيرانية، بحيث تكرّس المسّ بأراضٍ سيادية للجمهورية الإسلامية، والنجاة بفعلتها من دون دفع أي أثمان. وحققت إيران من خلال أسلوب الرد، وآلياته، وأسلحته ومكانه، مكاسب متعددة في آن، يمكن الإشارة إليها وفق التالي:

- نجحت إيران في التأسيس لمعادلة ردع، وهو أمر ستتضح معالمه مع مرور الوقت وبالممارسة العملية والمواقف الهادفة.
- نجحت إيران أيضًا بتحقيق أهدافها وإيصال رسائلها، من دون أن تدفع الطرفين الأميركي والإسرائيلي قهريًا لرد فوري يؤدي إلى التدحرج نحو حرب كبرى.
- سجلت إيران انتصارًا جديدًا في «معركة الارادات» مقابل الولايات المتحدة و»إسرائيل»، من خلال إصرارها على المضي بالردّ وفق ما ترتأيه رغم كلّ الضغوطات التي مورست عليها والعروضات التي قدمت لها، قبيل الرد وبعد العدوان على قنصليتها.
- وجهت إيران ضربة قاصمة إلى النظرية التي تروج لها «اسرائيل» بأن حضور الولايات المتحدة وتصديها، يردع إيران عن الرد تجنبًا لتدحرج الميدان مقابل الجيش الأميركي القادر على تهديد المنشآت الاستراتيجية لإيران.
- نجحت إيران في تحويل التهديد الذي مثّله الاعتداء على قنصليتها، إلى فرصة من أجل إعادة تشكيل المشهد الإقليمي وإرساء معادلات تُعمّق مأزق كيان العدو.
- مع أن إيران لم تستخدم سوى جزء بسيط من قدراتها، إلا أنها نجحت في كشف محدودية قدرات كيان العدوّ الذي استنجد بالولايات المتحدة، فحضرت إلى جانب دول أخرى أيضًا لاعتراض المسيّرات والصواريخ في طريقها إلى فلسطين المحتلة.

نجحت إيران في وضع كيان العدوّ أمام خيارين استراتيجيين: إما الرد التناسبي عبر شن هجوم عسكري مباشر على إيران، أو الامتناع عن هذا الخيار والبحث عن خيارات بديلة.

في ما يتعلق بخيار الرد، حذرت الاستخبارات الأميركية كيان العدوّ من أن إيران سترد بموجات جديدة من الصواريخ والمسيّرات، وما لم يتم الإعلان عنه هو طبيعة وحجم الرد الذي سيكون أكبر بأضعاف مما شهدته الموجة الأولى منه. أمّا في ما يتعلق بالخيار الثاني، فإن امتناع «اسرائيل» عن الرد التناسبي يعني التسليم بمعادلة الردع التي أرستها إيران، بأن المسّ بأراضيها وسيادتها أمر ممنوع، وسيقابله الرد المباشر من الأراضي الإيرانية إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة. وفي حال تبنى كيان العدوّ أيًا من الخيارات البديلة، الأمنية أو العسكرية ضدّ أي من أطراف محور المقاومة، فإن ذلك من شأنه تأكيد ارتداع «اسرائيل» عن الخيار العسكري المباشر ضدّ إيران، وعجزها عن إحداث تغيير في المعادلة التي أرستها إيران بالصواريخ والمسيّرات.